العوامل الحِجَاجيَّة في شعر مُظفر النَّوّاب
أُسلوب الاستفهام أُنموذجاً

Operateurs argumentalifs in Mudhafir AL– Nawab's *poetry Intcrogative anmozaga*

م.م. ضياء نوري أحمد جاسم
comnooridyaa7gmail.

مُلخص البَحْث

وظّف الشاعر مظفر النواب العوامل الحجاجية في شعره ؛ لما لها من أهميّة في تماسك النص النوَّابي وفي تناسـق الحجج وتسلسـلها ، بحسب السـياق الذي وردت فيه ؛ إذ تعمل العوامل على توجيهها نحو نتيجة واحدة ، فالشاعر يرمي إلى أنْ يصل إلى الحدّ الأعلى من الإقناع والقبول لدى الجمهور ؛ إذ إنّ أسلوب الاستفهام من أكثر العوامل الحجاجية تاثيراً في نفس المتلقي ؛ لأن المتكلم يطرح فكرته ويفسح المجال للمخاطب للبحث عن الجواب مع سيطرته على الحوار وذهن المتلقي ، ويقنعه بحجته يوجهه نحوها؛ ولأن غرض الشـاعر وهدفه هو توجيه المُتلقي لما يريده ، فقد كانت أشـعاره ذات قوّة إقناعية كبيرة.

الكلمات المفتاحية: الاستفهام، أدواته، الاستفهام الحجاجي

Research summary

The poet Mudhafir Al – Nawab employed the argumentative factors in his poetry because of their importance in the consistency of the text and in the consistency and sequence of the arguments and their sequence according to the context in which they are mentioned, as the factors direct them towards a single result. One of the Operators argumentalifs that the poet Mudhafir AL – Nawab›s depend on in his poetry, the interrogative method considered the most influent in the dust initiat, because the Locater display his idea and give space to the dust initiate to Search for the answer with him being in control on the dialogue and the dust initiate mind, convince him in his argument and

direct him in to it.

Key words: ELestafaham, adawatoh, elestafahom elagagy.

المبحث الأول

الاستفهام في اللُّغة والاصطلاح

يُعدُّ الاستفهام من العوامل الحجاجية المهمّة التـي توجّـه المُتلقّي نحو الاقتنـاع والإذعان، ويتركه مضطرًّا للإجابة عن السؤال، أو البحث عن جواب.

والاستفهام في اللُّغة من الفهم، و«الفَهْمُ: معرفتـك الشـيءَ بالقلـب، فَهِمَـه فَهْمـاً وفَهَماً وفَهامـة: عَلِمَـه... وفَهِمْـت الشـيء: عَقَلْتُـه، وعرَفْتـه. وفَهَّمْتُ فلاناً وأَفْهَمْتـه، وتَفَهَّم الكلامَ فَهِمه شيئـًا بعد شيء» (لسان العرب ، ١٩٦٨م : ٤٥٩/١٢).

وفـي الاصطـلاح «هو اسـتعلام ما في ضميـر المُخاطَـب، وقِيلَ: هـو طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين شيئين أو لا وقوعها، فحصولها هـو التصديق، وإلاَّ فهو التصوُّر»(التعريفات ، ٢٠٠٣م : ٢٢).

وهو «طلب العلم بالشـيء لم يكن معلومًا من قبل، بـأداة خاصّة» (علم المعانـي في البلاغة العربيَّـة ، د.ت : ٨٨) . إذن هـو طلـب الفهم، وأدوات الاسـتفهام هـي: «الهمـزة، هل، من، وما، ومتى، وأيَّان، وكيف، وأين، وأنـَّى، وكم، وأيّ» (عبدالعزيز عتيق : ٩٣).

المبحث الثاني

الاستفهام الحجاجي

ويُعدُّ الاسـتفهام «من أنجع أنواع الأفعال اللغويـة حجاجًا، وهو ما يتوسَّـل به الكثير في فعلهـم، إذ إنَّ طرح السـؤال يمكـن أن يضخّم الاختلاف في موضـوع ما، إذا كان المُخاطَب لا يشاطر المُتكلِّم الإقرار بجواب ما، كما يمكن أن يلطِّف السـؤال ما بين الطرفين من اختلاف إذا كان المُخاطَـب يميـل إلـى الإقرار بجواب غير جواب المُتكلِّم» (استراتيجيات الخطاب ، ٢٠٠٤م : ٤٨٣).

إنَّ للاسـتفهام أهمّيـة كبيرة مـن الناحية الحجاجيـة؛ «فالكلام والحجـاج متّصلان على نحو عميق، فإذا كان الكلام هو إشارة السؤال أو اسـتدعاء له فإنـَّه يولِّد بالضرورة نقاشًا، ومن ثَمّة حجاجًا، وترى أنَّ السـؤال يُعدُّ وسيلة هامّة من وسائل الإثارة وتدفع الغير إلى إعلان موقفه إزاء مشـكل مطـروح، وهـذا الموقـف يحدِّده المُتكلِّـم بقرائـن ومـواد اختياريـة تحضر في السـياق تقود عملية الاستنتاج المتّصلة بالسؤال المطـروح» (الحجاج في الشـعر العربي بنيته وأساليبه ، ٢٠١١م : ١٤١).

وكذلـك يُعـدُّ الاسـتفهام مـن الموجّهات الحجاجية التي توجّه المرسِـل إلى خيار واحد، وهـو «ضـرورة البحث عـن إجابة السـؤال، وبذلـك تكمن حجاجية الاسـتفهام في سـيطرة المرسِـل على مجريات الأحـداث، وعلى ذهن المُتلقِّـي، فيقنعه بحجّتـه ويوجّهه إلى النتيجة التي يهـدف إليها» (البنية الحجاجية في شـعر المتنبي ، ٢٠١٦ : ٨٦).

وقد ذكر عبدالله صولة ما للاسـتفهام من أثرٍ في توجيه الـكلام وجهةً حجاجية مُعيَّنة؛ إذ قـال: «إنَّ الغاية من كُلّ اسـتفهام، سـواء أكان حقيقيًّـا أم غيـر حقيقي، تتمثـَّل حسـب ديكرو

وأوسكمبر في أن نفرض على المُخاطَب به إجابة محدَّدة، يمليها المقتضى الناشئ ذلك الاستفهام، فيتمُّ بذلك توجيه دفّة الحوار الذي نخوضه معه الوجهة التي نريد، ولمَّا كانت أهمّ وظيفة ينهض لها الاستفهام هي توجيه باقي الحوار وجهةً مُعيَّنة، ولمَّا كان مفهوم هذا هو لبُّ الحجاج عند ديكرو كان الاستفهام مظهرًا حجاجيًّا» (الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأُسلوبية ، ٢٠٠٧م : ٤٢٧).

ويبدو أنَّ (التقرير) من أكثر معاني الاستفهام وأغراضه قربًا إلى المعنى الحجاجي (الاستفهام الحجاجي)، إذ يحصل فيه إقرار المُتلقِّي، أو المُخاطَب، بما يطرحه عليه المُتكلِّم، فيُعدُّ هذا الإقرار هو الاقتناع، وهذه هي غاية الحجاج الأُولى، وحتَّى لو لم يكن اقتناعًا حقيقيًّا، لكنَّه في الأقلّ لا يرفض النتيجة المطروحة، وهو بذلك يكون قد حقَّقَ المطلب الحجاجي(يُنظر: بنى الحجاج في نهج البلاغة ، ٢٠١٧م : ١٥١). وكذلك بقية أغراض الاستفهام المجازية، فهي تقرُب من غرض الإقناع (الحجاج)، لكن يبقى (التقرير) أقربها إلى هذا المعنى.

و«المقام هو الذي يحدِّد طبيعة السؤال، وطريقة طرحه، وكذلك معرفة المُخاطَب بطريقة تفكير المُتلقِّين يجعل أسئلته أكثر دقّةً وأكثر إقناعًا» (فضيلة قلاتي : ٥٦). فكُلّما كان المُتكلِّم عارفًا بجمهوره المُتلقِّي استطاع الوصول إلى إقرارهم وإقناعهم.

لكنَّ هناك أسئلة مُركَّبة، إذ يفضي السابق إلى اللاحق، وهو ما يسمِّيه حسن وجيه بأسئلة الأقمعة؛ إذ «يبدأ المرسِل بسؤال مفتوح، ويعقبه بأسئلة تأخذ في الانغلاق المتدرّج للوصول إلى أسئلة مغلقة تمامًا»(للشهري : ٣٥٢). ممَّا يحدِّد قوّة النصّ الحجاجي، أو ضعفه كما ذكرنا آنفًا.

أمَّا الأغراض والمعاني التي يختصُّ بها الاستفهام، فهي كثيرة، وقد أحصى البلاغيون عددًا كبيرًا منها، أهمّها: الإنكار، والتوبيخ، والتقرير، والعتاب، والتعظيم، والتهديد، والتسوية، والتعجُّب، والتنبيه، والترغيب، والتحضيض، والتحقير، وغير ذلك كثير(يُنظر: البلاغة العربيَّة أُسسها وعلومها وفنونها ، ١٩٩٦م : ٢٧٠/١).

وقد استعمل الشاعر مُظفَّر النوَّاب الاستفهام في شعره؛ لأنَّ «للاستفهام في الشعر بنية حجاجية قوية تقوم على طرح القضية المُراد تقديمها، ثُمَّ شرحها وتعليلها»(فضيلة قلاتي : ٨٦). واعتمد في ذلك أدوات الاستفهام، ولأغراض استفهام مختلفة، حاول من طريقها الحصول على انتباه وتأييد واقتناع الجمهور.

المبحث الثالث

أدوات الاستفهام: (الهمزة، وهل، ومَنْ، وماذا، وكيف، ومتى، وأين، وأيّ)

١. الهمزة:

تأتي للاستفهام، على أوجه: إما أن تكون على جهل من المستفهم، أو أن تكون إنكارًا، أو تعجُّبًا أو استرشادًا، أو تقريرًا وتحقيقًا(يُنظر: معاني الحروف ، ١٩٨١م : ٣٢-٣٣). و«تدخل على الجملة الاسمية والفعلية...، وتكون معادلة لـ(أم) تارةً، وغير معادلة»(رصف المباني ، ٢٠١٤م : ٤٤-٤٥)، وتأتي لطلب التصديق، والسؤال بها عن جزء الجملة، أو عن جزء من أجزاء الإسناد(يُنظر: البلاغة الاصطلاحية ، ١٩٩٢م : ١٦٢).

ويقـول فيهـا سـيبويه: إنَّ الهمـزة «حـرف اسـتفهام لا يـزول [عنـه] إلـى غيـره، وليس للاستفهام في الأصل غيره»(الكتاب ، ١٩٨٨م : ٩٩/١).

وقد جاءت الهمزة في نصوص كثيرة من شعر مُظفَّر النـوَّاب، منها ما ورَدَ في قصيدة (مرثية لأنهـاء من الحبـر الجميـل)؛ إذ يقول(الأعمال الشعرية الكاملة ، ٢٠١٤ : ٢١٩):

ألا ننتهي؟
صار صوتُ المُلقِّن
أعلى من البهلوان المُهرِّج
فوقَ رؤوس الجماهير
هل سوف نخرجُ
مما على نفسنا
نتضاحك
أم ستُعادُ الفُصولُ؟!

القصيـدة كُتِبَـت رثـاءً لـ(ناجـي العلـي)، والشـاعر فـي هـذا النـصّ يوجّه سـؤاله إلى الجماهير العربية، غايته اسـتنهاض ضمائرهم النائمة؛ لأنـَّهم لو ظلُّوا على تقاعسهم فستطالهم يـد السـلطة الظالمـة، وسـيُغتال مثقّـف آخر، وصوت من أصـوات الوطن العربي الصادح، الجمهـور مـدرك لإجابة هـذا السـؤال، وهي النتيجـة الحتمية، لو بقيَ الوضـع العربي على حاله فلن ينعم الشـعب العربي بالحياة الكريمة، فقد أصبح الموت شيئـًا مألوفًا، وما عاد العربي يتأثـَّر لسماع خير وفاة أحدهم، فالجميع منتظر أن يلقى حتفه بأيِّ وقت ولأيّ سـبب، فالشـاعر بسـؤاله هذا أقام الحجّة علـى المُتلقّي، وتنحَّى جانبًا تـاركًا له المجال للإجابـة وهي واضحة جلية، فهو يتوقّع أن تكون الإجابة فعلاً ملموسًـا يتـرك أثـره، وضمِـنَ تعاطفهـم وتأثـُّرهـم، وقد تحقَّقـت غاية الحجاج وهو اقتنـاع وتأثـُّر المُتلقِّي.

وفي قصيدة (نهنهني الليل) يتسـاءل الشاعر مسـتعملاً الهمـزة، فـي قوله(مظفـر النواب: ٢١٩):

وأجيءُ إلى صدرِك يا شامُ
تداوين جُروحي منك
وحدّ لساني عهدك بي
أو ليس من التعبئة العربيةِ
ألاَّ يترك في السجن فتًى عربي

الشـاعر في هذا النصّ يصل إلى الشـام بعد رحلـة قـام بهـا، وهو يطـوف في أرجـاء هذا الوطن الرحب، ناثرًا عشقه فوق منازله العتيقة، وشـوارعه المزدحمة، داعيًا إلى الثورة داعمًا لها، مسـتمدًّا قوّته وعزمه من أرضها المقدّسة، وعنـد وصولـه إلـى الشـام ليـداوي جروحه، متسـائلاً عـن هـدف المقاومة العربيـة، أليس الخروج من السـجن الكبير الـذي نحتجز فيه، أليـس التخلُّص من القيود؟ لمـاذا إذن ما زالت هناك سجون تقيّدنا؟ لماذا لا نثور؟ لماذا نخشى التحرُّر؟ والجواب على كُلّ هذه التساؤلات: إنَّ مصير كُلٍّ منّا هو كسـر القيد والخروج من هذه الزنزانة التي تقبع داخلنا، الشاعر ترك المجال للـمُتلقِّي كي يجد الجواب، لكنَّه وضعه في خانة محـدّدة تسـتلزم إجابة محـدَّدة، وهي ضرورة التخلُّص من القيود.

٢. هل :

أداة اسـتفهام «تدخـل على الجملـة الفعلية، وتسـتعمل لطلـب التصديق فقط، ويسـتفهم بها فـي الإثبـات فقط»(الأزهية في علـم الحروف ، ١٩٩٣م : ٢٠٨). وهـي «مـن الحـروف

الهوامـل... تكون اسـتفهامًا عـن حقيقة الخبر، وجوابهـا نعـم أو لا»(للرمانـي : ١٠٢). وتأتـي (هل) «لطلب التصديـق... وترد لطلب التصوُّر... لذلك انفردت بمعادلة (أم) المتصلة؛ لأنـَّهـا يُطلَب بها تعيين أحـد الأمرين»(الجنى الداني ، ١٩٩٢م : ٣٤١).

وقـد اسـتعمل الشـاعر مُظفَّـر النـوَّاب أداة الاسـتفهام (هل) في شـعره حجاجيًّـا، من ذلك قوله فـي قصيـدة (عـروس السـفائن)(مظفر النواب : ١٩٨):

وهل ثَمّ أرضٌ تُسمَّى لجوءًا
لنُدفَن فيها
وهل في التراب كذلك
مقبرة أغنياءُ.. ومقبرة فقراءُ
تلفتُّ في ظاهر الشام أبحثُ عن موضعٍ
لا يمتُّ لغير منابعِهِ
ندفنُ الطفل فيه

الشـاعر في هذا النصّ يشـبِّه الشام بكربلاء ومـا جرى فيهـا، فاللاجئون لا يحـقُّ لهم حتَّى دفن موتاهم في هذه الأرض، ويتساءل الشاعر بالأداة (هل) عن كون المقابر تختلف نظرًا إلى الميّـت، هل هو فقيـر أم غني؟ هل هناك أرض لاجئة تضـمُّ رفات مَنْ لا وطـن لهم، هل يبقى اللاجـئ الذي حُرِمَ من وطن ينتمي له في حياته وحتـى مماته؟ ما هو الذنب الـذي اقترفه ليظلّ غريبًـا بلا وطن؟ كُلّ هذه التسـاؤلات يطرحها الشـاعر موبِّخًا ومعاتبًا الحكومات العربية التي وضعت هذه القوانين الجائرة، وهو بذلك يوجِّه الـمُتلقِّي نحو نتيجة محدَّدة وهي معاناة اللاجئين وما يجترعونه مـن عنصرية وتمييز وظلم في المخيّمات.

وقـد ورَدَت (هل) في مواضع أُخَر، منها مـا جاء في قصيـدة (ثلاثة أُمنيّـات على بوابة السنة الجديدة) (مظفر النواب: ٣٩٨):

هل أخرجُ للشارع؟
مَنْ يعرفني؟
مَنْ يشتريني
بقليلٍ من زوايات عينها؟
تعرف تنويني
وشدّاتي
وضمّي
وجُموعي

في هذا النصّ يطرح الشاعر سؤالاً مُركَّبًا؟ تعقبه أسئلة متسلسلة، يهدف بها جذب الـمُتلقِّي، وشـدّ انتباهه نحو ما يريده الشاعر، ثـُمَّ يدع له المجـال للجواب الذي يعرفه منـذ البداية، لكنَّه يترك له الحرية في إعلان موقفه بطواعية، مع سيطرته على مجريات أحداث النصّ، فالشاعر يتسـاءل وهـو الغريب في هذا البلـد البعيد عن الوطـن وحيـدًا حزينًا، والجميع يحتفل بالسـنة الجديدة مع أحبابه، لا يعرفه أحد ولا يأبه لأمره صديـق أو حبيب، لو خرج فلن يكترث له أحد، ولن تلتفت له حسـناء من حسـناوات أثينا، ولن تحفل بلغته وأحاسيسه المترجمة لكلمات حزينة تتهـاوى بين سـطور قصائـده، فهو يعلـم أنـَّه مغمـور في الغربة والجمهـور الـمُتلقِّي يعرف ذلك، لكنَّه مع ذلك يتسـاءل ليدلَّ على أنَّ غربته وهـي الحجّـة للنتيجـة التي يعـرف أنَّ القارئ سيصل إليها، وهي أنَّ من ليس له أحبّة لن يرى للسعادة وجهًا، أو يذوق لسرور طعمًا.

٣. مَنْ :

اسم استفهام، «يُسأَل بها عن العاقل أو العقلاء، فيُجاب بذكر أسمائهم، أو صفاتهم.. وقد أضاف

السكّاكي إلى (مَنْ) استعمالاً آخر هو السؤال بها عن الجنس من ذوي العلم»(يُنظر: مفتاح العلوم ، ١٩٨٣م : ٣١١).

مــن الأدوات الاســتفهامية التــي ورَدَت في شــعر مُظفَّر النوَّاب، وفي مواضــع عِدَّة، منها قول الشــاعر في قصيــدة (ثلاثــة أُمنيّات على بوابة السنة الجديدة)(مظفر النواب : ٣٩٩):

كان قلبي يضطرب..
كنتُ أبكي
كنتُ أستفهِمُ
عن لونِ عريس الحفلِ
عمَّن وضع الدعوة
عمَّن وضع اللحنَ
ومَنْ قادَ
ومن أنشدَ
أستفهمُ
حتـَّى عن مذاقِ الحاضرين

طرح الشاعر سلسلة من التساؤلات التي أدَّت إلى النتيجة المطروحة، وهي غياب العراق عن التمثيل الدولي (أيّام الحصار)، والشاعر يشكو بحــزن وألــم غياب وطنــه، ويســأل عمَّن كان الســبب في ذلك، مَنْ الــذي غيَّب العراق دوليًّا؟ هل هم منظّمو الحفل أم المسؤولون والحكومات العربية؟ أم هل السلطة الحاكمة آنذاك؟

مَــنْ كان الســبب الحقيقي لهــذا الغياب، هذه التســاؤلات بـ(مَــنْ) تســأل عــن الفاعل، وهي تمثـِّل (الحجّة) التي تؤدِّي أو أدَّت إلى النتيجة، وهــي (غيــاب العــراق) واضطــراب وحزن الشاعر وكُلّ عراقي على وطنه.

ويقــول فــي قصــدة (وتريّــات ليلية)(مظفر النواب : ١٤٤-١٤٥):

مَنْ ذاك؟
أجبتُ كنارٍ مطفأةٍ في السهلِ
أنا يا وطني؟
مَنْ هرَّب هذي القريةِ
من وطني؟
مَنْ ركَّبَ أقنعةً
لوجوه الناسِ
وألسنةً إيرانية!!!
مَنْ هرَّبَ ذاك النهر
المتجوسق بالنخلِ
على الأهوازِ
أجيبُوا
فالنخلةُ أرضٌ عربية

مــن المميّــزات التي انماز بها الشــاعر هي التكرار، ولا ســيَّما تكرار الســؤال، فنلحظ في هذا النصّ أنَّ الشــاعر استعمل الأداة (مَنْ) خمــس مرّات، قاصدًا توجيه المُتلقّي نحو فكرةٍ يســعى إلى بيانها، وهــي إنَّ (الأحواز) أرض عراقيــة عربية، وهذه حقيقــة حاولوا إخفاءها، ففي هذا النصّ يصوّر الشاعر مرحلة من قصة هروبه، عندما وصل إلى الأحواز مختبئًا فيها، فظنَّ أنــَّــه مازال في العراق؛ لأنَّ القرية كانت قرية عراقية يحيطها النخيل، ويتوسّــطها النهر العذب، وبيوتهــا وتصميمها العمراني، ووجوه الناس وسحنتهم العراقية، مستحيل أن يخطأ في معرفتهــا، لكنَّه تفاجأ بأنَّ هذه الأرض أصبحت إيرانيــة، فاســتفهم متعجّبًــا كيف حصــل هذا؟ ومتى؟ ولِمَ؟

وهو يطلب الإجابة من المُتلقّي، وفي الوقت نفســه يوجّــه المُتلقّي إلى قضيــة مهمّة، وهي (عراقية الأحــواز)، فحصوله على الإجابة هو أيضًا ضمانة لدعم وإذعان المُتلقّي، وتســليمه بكلامه.

٤. ماذا ـ ما:

«اسـم اسـتفهام يُسـتفهَم به لغير العاقل، عن حقيقـة الشـيء، أو صفته، سـواء كان عاقلاً أم غير عاقل»(أسـلوب الاسـتفهام فـي القرآن ، ٢٠٠٠م : ١١).

ويقول السـكّاكي: إنـَّها للسـؤال عن الجنس والوصف(يُنظر: السـكاكي : ٣١٠). أمَّا (ماذا) فهي مُركَّبة من (ما) الاسـتفهامية، و(ذا) اسـم الإشارة، وأُجرِيا مع ما بمنزلة اسم واحد(يُنظر: سيبويه : ٤١٦/٢).

وظَّفَ الشاعر مُظفَّر النوَّاب السؤال بـ(ماذا، مـا) فـي قصائـده، من ذلـك قوله فـي قصيدة (الأساطيل)(مظفر النواب : ٣٧١):

أيـُّها الدمُ العربيُّ
لماذا هزمتَ
وواحبك العسكري فلسطين
أنت أجب
أيـُّها الدمُ

الشاعر يسأل مستنكرًا لماذا احتُلَّت فلسطين، وكُلّ هذه الجيوش العربية حاضرة؟ التي واجبها حمايـة الوطن العربـي، ولا سـيَّما الدفاع عن فلسطين، فالسـؤال بـ(ماذا) عن سبب الهزيمة، وهـي (النتيجة المطروحـة)، ويطالب بمعرفة الجـواب مـن المُتلقِّـي، وهـو هنـا (الجمهور العربي)، فهو الذي يملك الإجابة.

فالهزيمـة هـي نتيجة للتخاذل، وهو السـبب الرئيس، فالشـاعر وجَّهَ المُتلقِّـي نحو الإجابة وحصرهـا، ممَّـا لا يدع المجـال للمتلقِّي بتعدُّد الخيارات والاستنتاجات.

وفـي قصيـدة (صُـرّة الفقـراء المملـوءة بالمتفجّـرات)، يقول الشـاعر(مظفر النواب : ٤٢٤-٤٢٥):

وألقى الحرسُ النفطيُّ
القبضَ عليك
وصار مصيرُك مجهولاً ثانيةً
في الصحراء
يحضرُ مؤتمر القمةِ
للتحقيق
وتنزعُ أكفانك تنبشُ
ما اسمك؟
لم تنبس
ما اسمك ها؟
لم تنبس
عمرك؟
لم تنبس
وتبسَّمتَ
فليس هنالك عمرٌ للشهداء

هذا النصّ هو مشـهد متكرّر في ظلّ سياسـة القمـع والاسـتبداد، فأبطال هـذا الوطن لطالما كانـوا مُلاحقين يحيط بهم الخطر من كُلّ مكان، والشـاعر وظَّفَ (ما) في هذا النصّ في سلسلة تسـاؤلات تهيّئ المُتلقِّـي وتوجّهه إلى النتيجة، فالسـؤال عن اسم الشـهيد وعمره لا يُهم، غير كونه شهيدًا، وسـيظلُّ خالدًا، ولن يُنسَى ذكره، وهذه هي النتيجة التي يريد الشـاعر تثبيتها في أذهان الجمهور، بأنَّ الشهيد حيٌّ يُرزَق، فالقمع والاضطهاد حجّة للنتيجة (الشهادة للخلاص).

وفـي مقطع آخر من قصيـدة (وتريّات ليلية) الحركـة الأُولـى، يسـتعمل الشاعرالسـؤال بـ(إلامَ)؛ إذ يقول(مظفر النواب : ١٥٧):

إلامَ ستبقى يا وطني!
ناقلةً للنفطِ
مدهنة سخام الأحزان
وأعلام الدول الكبرى

ونموتُ مذلّة؟؟!!
إلامَ أنا وطنٌ في العزلة؟
يا غُرباء الناس
أغصُّ؛ لأنَّ الدمع يجرحُ أجفاني

نلحظ الاستفهام الاستنكاري في هذا النصّ، فالشاعر يعاتب وطنه بحزن؛ لأنَّه يملك كُلّ هذه الثروات، وما زال شعبه بين فقير ومهاجر، وهذه هي الحجّة، فقد اختزل الشاعر حال الوطن بعبارة (ناقلةً للنفط)، ويملؤه سخام الأحزان على حال أبنائه الذين يعيشون مذلّة الفقر داخله.

أمَّا قيمة النصّ الحجاجية فقد اكتسبها من الطاقة الاستفهامية التي عملت على توجيه المُتلقّي نحو فكرة واحدة تُمثّل النتيجة المتوقّعة لحال هذا الوطن، وهي الحزن والغربة، وشعور المذلّة، ونلمس في هذا النصّ دعوة للتغيير، ولا بُدَّ لهذا الوطن من موقف صارم ليصلح من وضعه.

٥. كيف :

اسم استفهام يُستفهَم به عن الحال(يُنظر: السكاكي : ٣١٣)، وهي بمعنى على أيّة حالة.

وجاء السؤال بـ(كيف) في نصوص عِدَّة، منها قول الشاعر في قصيدة (زنزانته وما هم ولكنَّه العشق)(مظفر النواب : ٣٨٨):

ربِّ سامِحهم وإنْ لم يسكروا
كيف يشتاقُ إلى خمرة جنّاتك
مَنْ لا يعرفُ الخمرَ
ويشتاق صبایاها
إذا كان هنا ما عشقا؟!!

يتساءل الشاعر معجّبًا في هذا النصّ عمَّن لا يحتسي الخمر، وكيف سيعرف طعم الجنّة وملذّاتها إن لم يعرف لذّة الخمر، فهو يشبّه لذّة الخمر بالجنّة، وكُلّ ملذّاتها من شراب ومأكل وحور عين، وهو يعني السكر المعنوي، أي: الهيام بالمعشوق الأزلي، وهو الله سبحانه وتعالى، وهو نتيجة، والحجّة إنَّهم لم يجرّبوا الحياة الروحية، والانعتاق من القيود في الحياة الدنيا.

وفي مقطع من قصيدة (قل هي البندقية أنت)، يقول الشاعر(مظفر النواب : ٢٣٥):

وكيف اقتلعت المُعسكرَ
يا ابن ثلاثة وعشرين
اللهُ أكبرُ والبندُقيّةُ
عاد عليٌّ إلى باب خيبرَ

يبدو أنَّ الاستفهام في هذا النصّ جاء لغرض تعظيم الشهيد خالد أكر الذي قاد طائرته الشراعية داخل الأراضي المحتلة في عملية نوعية قتل فيها كثير من جنود الاحتلال، وبهذا العمر الصغير؛ إذ أثار إعجاب وافتتان الشاعر، إذ شبَّهَ شجاعته بشجاعة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) يوم خيبر، فهجومه على المعسكر، وهي (النتيجة)، كان بسبب شجاعته وبسالته (الحجّة)، فهذا هو ما دفع الشهيد إلى إقدامه على هذه العملية الانتحارية، فقد حُصِرَت الاستلزامات الحجاجية بنتيجة واحدة انساقت إليها الأذهان بكُلّ طواعيّة.

٦. متى :

اسـم اسـتفهام يُسـتفهَم به عن الزمان ماضيًا أو مسـتقبلاً(يُنظر: عبـده عبدالعزيز : ١٦٦). وهـو «ظرف مـن الزمـان، بمعنـى (الحين) و(الوقت)»(الهروي : ٢٠٠).

وقد ورَدَ السـؤال بـ(متى) فـي قصائد مُظفَّر النـوَّاب، منها فـي قصيدة (وتريّـات ليلية)؛ إذ يقول الشاعر(مظفر النواب : ١٣٠):

أقطرُ في الليل
وأسألُ ثلجَ الإنسانِ
متى سيذوب

فـي هـذا النـصّ المختـزل، وبهذا السـؤال الصريح يسأل الشاعر: متى سيذوب هذا الثلج الذي يغطّي قلب الإنسان؟

متى سـيترك قلبه ليشـعر بمن حوله ويظهر تعاطفـه مـع مـا يـدور حولـه، متى سـتظهر إنسـانيّته، فقـد أصبـح الإنسـان أخطـر عدوّ للإنسـان، بهذا السـؤال البسـيط وجَّهَ الشـاعر الـمُتلقِّـي نحو اسـتنتاجات وإمكانـات حجاجية عِـدَّة، وتدريجيًّا حصرهـا بنتيجة واحدة حدَّدها مسـبقًا ودفع بها أمام الـمُتلقِّـي، ممَّا لا يترك له المجال للتفكير بغيرهـا، مبديًا إذعانه واقتناعه التامّ، فمتى ما ذاب هذا الجبل الجليدي من فوق قلب الإنسـان وتخلّى عن كونه متلبِّد المشاعر، أزهرت إنسانيّته بالحبّ والعطاء، ولأنَّ الشاعر يتمتَّع بإنسـانيّة تتيح له الشـعور بمآسي غيره، وهي حجّة تـؤدِّي إلى النتيجة، وهي إنَّ باردي المشاعر يجب أنَّ تلين قلوبهم.

وفـي نـصٍّ آخـر مـن القصيـدة نفسـها، يقول(مظفر النواب : ١١٢):

متى تنتهي
كُلُّ هذي الفوازير
والنشرات الرخيصة
والمخبرين الغِلاظ الوجوه

يتسـاءل الشـاعر عـن موعـد انتهـاء هـذه المهزلة، مزدريًا الوضع الذي آلت إليه الأُمور، فهؤلاء الذين ينتقدونه لا يملكون شيئًا ضدّه إلاّ الانتقـاد، وهو يقـول بأنَّه لا يأبه لهم، وسـيظلُّ مسـتمرًّا في محاربتهم وفضحهـم، غير خائف مـن المتربّصيـن به الذيـن يحاولـون اغتياله، فقضيتـه أكبر من كُلّ تهديد وانتقاد. الاسـتفهام وجَّهَ النصّ نحو نتيجة ما، وهي إنَّ هذه الأخبار الكاذبة المفبركة ، والمـواد الدعائية الرخيصة لـن تنتهي قريبًـا، والحجّـة في ذلك هـي بقاء الأنظمة المتخلِّفة.

٧. أين :

اسم اسـتفهام يُسـتفهَم به عن المكان(يُنظر: عبده عبدالعزيز : ١٦٦).

مـن الأدوات التي الحجاجية التي اسـتعملها الشـاعر في نصوصـه، منها قوله فـي قصيدة (المسـاورة أمام البـاب الثاني)(مظفر النواب : ٢٩٨- ٢٩٩):

قال..
والعدُّ شارف آخِرَ أحلامِهِ
والمفاتيحُ لمـَّا تعُدْ
تستجيبُ لهُ
أين أنتَ..

لماذا تأخَّرتَ
عن موعد النغماتِ الأخيرة
والشاي
قلتُ:
أُقبِّلُ كفَّيك في غربتي
لا أزالُ بأرصفة الليلِ

في هـذا النصّ نـرى محاورة بين الشـاعر ووالـده الـذي ينتظـر رجوعـه إلـى الوطن، لكنَّ هـذه الغربة قد طالت أكثر ممَّـا توقَّع لها، فالشـاعر يحنُّ إلى الجلسـات الغنائيـة الأدبية، التي كانت تُقام في منزل الأُسـرة، والمسامرة، واحتسـاء الشـاي، مع الفنّانين والشعراء، كُلّهم فـي انتظـاره، إلاَّ أنـَّـه تأخَّر كثيـرًا؛ لأنـَّه ما زال يجـوب أرصفة الغربة، فالسـؤال بـ(أين) و(لمـاذا) تصـرف المُتلقِّـي إلـى (التأخُّـر)، وانتظـار العـودة، وهو يجيب بانه لا يسـتطيع العـودة الآن؛ لأنـَّه مـا زال متمسِّـكًا بمبادئه، ولـن يتنازل عنها، وهذا مـا لا يُرضي الحكّام، لذا سـيبقى متغرّبًا. فالسـؤال وجَّـهَ النصّ نحو نتيجـة واحدة، وهـي التأخُّر وانتظـار العودة، وليـس هنـاك اسـتنتاج آخر، وهذا هـو مغزى الحجاج فالعامـل الحجاجي حصـر الإمكانات والاستنتاجات الحجاجية بنتيجة واحدة.

وفي قصيـدة (اعترافتان فـي الليل والإقدام علـى ثالثـة)، يقـول الشـاعر(مظفر النواب : ٣٥٦):

أينكَ مولاي!
سكوتك أوجعُ من صلبي
وندائي في القفرِ

في هذا النصّ يسـتدعي الشـاعر شـخصية السيد المسيح (عليه السـلام)، وهو رمز للمنقذ الذي سيخلِّص هذه الأُمَّة، ويشبِّه معاناته بصلب المسيح، فقد دقّوا المسامير بكفّيه وصلبوه، وهذا الألـم ليس أكبر من ألم انتظار المنقذ الذي تأخَّر كثيرًا، ولا يبدو أنـَّه سيظهر قريبًا، فالسؤال عن مكانه جاء ليصرف أذهان المُتلقِّي عن إمكانيّة تعدُّد الاسـتلزامات الحجاجيـة، وإثبات وجوده ومكانه، وحصرها في قدومه المنتظر من مكانٍ مـا، فأصبح المُتلقِّي على دراية واقتناع بوجود المنقذ، من طريق أُسـلوب الاستفهام الذي أثبت وجوده، وذلك بالسؤال عن مكانه.

٨. (أيّ)

اسـم اسـتفهام «يُسـأَل بهـا عمَّـا يميِّـز أحد المشـتركَينِ في أمرٍ يعمّهمـا، أو عمَّا يميِّز أحد المشـتركِينَ في أمرٍ يعمّهم»(عبده عبدالعزيز : ١٦٦).

ويُطلَـب بها تعيين شـيء، وتصلـح للعاقل، وغيـر العاقـل، وللزمـان والمكان(يُنظـر: عبدالكريم محمود : ١٢).

وقد ورَدَت في نصوص النوَّاب، لمعانٍ عِدَّة، منهـا: لغيـر العاقل، كمـا في قوله فـي قصيدة (عبدالله الإرهابي)(مظفر النواب : ٤٥٢):

أيُّ براكينٍ خامدةٍ
في نظراتِك
في زاويةِ الغرفةِ
أيّةُ قافلةٍ

بَرخت في الصمت الهائِلِ
وجهك..
ما هذا الصمتُ العبدُ الله

جاء الاستفهام في هذا النصّ بأداتين، هما (أيّ) و(ما)، فكان استفهامًا تقريريًّا يوجّه المُتلقِّي إلى نتيجة ، وهي إنَّ هذا الصمت الثوري ما هو إلاّ بركان خامد سينفجر في أيّة لحظة، ليس خوفًا ولا استسلامًا، فهو الهدوء الذي يسبق العاصفة، فـ(عبدالله) رمز للثورة والثوّار، والثورة لا تنتهي إلاّ بتحقيق أهدافها، فعندما تساءل الشاعر عن سبب الصمت الفلسطيني، كان يرى بوادر الثورة والمقاومة، لكن ليلفت الانتباه، وليخلق جوًّا من التفاعل، والتأثُّر مع هذه القضية، فالغضب الكامن في النفوس هو حجّة تؤدِّي إلى نتيجة واحدة، هي النضال ضدّ المحتلّين.

وفي مقطع آخر من القصيدة، يقول الشاعر(مظفر النواب : ٤٧٩):

فكّر
أيّ طريقٍ تسلكُ
من خلف خيانات الواقع
تبلغُ بيروت الغربية
ارهن خاتمَ عرسِكَ
حلّي صغارك..
راتبك الشهريّ
وقد لا يكفي ذلك تذكرةً

استعمل الشاعر أداة الاستفهام (أيّ) في هذا النصّ للسؤال عن المكان والوجهة التي سيتّجه إليها اللاجئ الفلسطيني الذي بقي رحّالاً يبحث عن مكان يأويه، لكنَّ الخيانات تتلقّفه من كُلّ حدب وصوب، وللحصول على تذكرةٍ لا بُدَّ له من التخلِّي عن كُلّ ممتلكاته المادّية وربّما المعنوية، فلم يعُد يملك شيئًا غيرها، فهذا السؤال يفتح المجال للمتلقِّي لاستيعاب حجم المعاناة التي يعيشها اللاجئ في مخيّمات العرب (العنصرية)، وهي السبب في بحثه عن بلادٍ تحتضنه، لكنَّه لا يملك ثمن تذكرة الدخول إلى أرض آمنة يحيا بها بكرامة، فخيانات العرب كانت حجّة في العودة إلى التمسُّك بالأرض والمقاومة، وهي النتيجة.

*** الخاتمة :**

عمدّ الشاعر مظفر النوّاب إلى استعمال أدوات الاستفهام ، وكان لها دور كبير في توجيه المتلقي إلى القضايا التي طرحها مخاطباً الشعوب العربية المضطهدة ، موبخاً الحكومات والسلطة المستبدة ، عن طريق طرح الأسئلة ، مستعملاً في ذلك (مَنْ ، ماذا ، متى ، كيف ، أين وغيرها).

*** المَصَادِر والمَرَاجع :**

١. الأُزهية في علم الحروف: لعلي بن مُحمّد النحوي الهروي (ت٤١٥هـ)، تحقيق: عبدالمعين الملوحي، دمشق، ط٢، ١٩٩٣م.

٢. استراتيجيَّات الخطاب مقاربة لغويَّة تداوليَّة، عبد الهادي بن ظافر الشهريّ، دار الكتاب الجديد المتّحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

٣. أُسلوب الاستفهام في القرآن الكريم،

غرضــه، إعرابه، عبدالكريم محمود يوسـف، مطبعة الشام، ط١، ٢٠٠٠م.
٤. الأعمال الشـعرية الكاملـة، مُظفَّر النوَّاب، مع ديوان الريل وحمد، مكتبة البوَّاب، العراق/ بغداد، ط١، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
٥. البلاغـة الاصطلاحيـة، د. عبده عبدالعزيز قلقيلـة، دار الفكـر العربـي، القاهـرة، ط٣، ١٩٩٢م.
٦. البلاغة العربية، أُسسـها وعلومها وفنونها، وصورٌ مـن تطبيقاتها، بهيكل جديد من طريف وتليد، عبدالرحمن حسـن حبنكة الميداني، دار القلم/ دمشق، والدار الشامية/ بيروت، ١٩٩٦م.
٧. بنى الحجاج في نهج البلاغة، دراسة لسانية، د. علـي عبدالوهاب عباس، دار نيبور للطباعة والنشر، العراق، ط١، ٢٠١٧م.
٨. البنية الحجاجية في شـعر المتنبي، السيفيات أنموذجًـا، مقاربة تداولية، رسـالة ماجسـتير، فضيلـة قلاتي، إشـراف: حاتم كعـب، جامعة العربـي بن مهيـدي، أم البواقـي، كلية الآداب واللغات، قسم اللُّغة والأدب العربي، ٢٠١٦م.
٩. التعريفات، السـيد الشريف أبو الحسن عليّ بـن محمّد الحسـيني، الشـريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، وضـع حواشـيه وفهارسـه: مُحمّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م.
١٠. الجنى الداني في حروف المعاني، أبو مُحمّد بدر الدين حسن بن قاسم المرادي (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: د فخر الدين قباوة والأُسـتاذ محمّد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
١١. الحجاج في الشـعر العربي بنيته وأساليبه، إعداد الأستاذة الدكتورة سـامية الدريدي، كلية العلـوم الإنسـانية والاجتماعية، تونـس، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١١م.
١٢. الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأُسـلوبية، عبـدالله صولـة، دار الفارابـي، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م.
١٣. رصف المباني في شرح حروف المعاني، الإمـام أحمد بن عبدالنور المالقي (ت٧٠٢هـ)، تحقيـق: د. أحمـد محمّد الخـرّاط، مجمع اللُّغة العربية، دمشق، ط٤، ٢٠١٤.
١٤. الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبـة الخانجـي، القاهـرة، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
١٥. لسـان العـرب للإمام العلامـة أبو الفضل جمـال بن مُحمّد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصـري (٧١١هـ)، دار صـادر، بيـروت، ١٩٦٨م.
١٦. معانـي الحـروف، أبـو الحسـن عليّ بن عيسـى الرمّاني النحوي (ت٣٨٤هـ)، تحقيق: الدكتور عبدالفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق للنشـر والتوزيـع والطباعـة، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
١٧. مفتـاح العلـوم، الإمـام سـراج الملّـة أبو يعقوب يوسـف بن أبي بكر بـن محمّد بن علي السـكاكي (ت ٦٢٦هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلّـق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.